[هكذا وقع في الصحيحين أن المقاول لسعد بن عبادة هو سعد بن معاذ ، وهذا من المشكلات التي أشكلت على كثير من أهل العلم بالمغازي ، فإن سعد بن معاذ لا يختلف أحد منهم أنه مات إثر بني قريظة ، وقد كانت عقب الخندق ، وهي في سنة خمس على الصحيح . ثم حديث الإفك لا يشك أنه في غزوة بني المصطلق هذه وهي غزوة المريسيع . قال الزهري : في غزوة المريسيع . وقد اختلف الناس في الجواب عن هذا ؛ فقال موسى بن عقبة فيما حكاه البخاري عنه : إن غزوة المريسيع كانت في سنة أربع ، وهذا خلاف الجمهور ، ثم في الحديث ما ينفي ما قال ، لأنها قالت : وذلك بعد ما أنزل الحجاب ، ولا خلاف أنه نزل صبيحة دخوله ﷺ بزینب بنت جحش ، وقد سأل ﷺ

زينب عن شأن عائشة في ذلك فقالت : أحمي سمعي وبصري . قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ . وقد ذكر أهل التواريخ أن تزويجه بها كان في ذي القعدة في سنة خمس فبطل ما قاله ولم ينجل الإشكال . وأما الإمام محمد بن إسحاق بن يسار فقال : إن غزوة بني المصطلق كانت في سنة ست وذكر فيها حديث الإفك ، إلا أنه قال : عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة فذكر الحديث . قال : فقام أسيد بن الحضير فقال : أنا أعذرک منه ولم يذكر سعد بن معاذ . قال أبو محمد بن حزم : وهذا الصحيح الذي لا شك فيه ، وذلك عندنا وهم ، وبسط الكلام في ذلك مع اعترافه بأن ذكر سعد جاء من طرق صحاح . قلت : وهو كما قال إن شاء الله . وقد وقع من هذا النمط في الحديث - مما لا يغير حكماً - أحاديث ذوات عدد ، وقد نبه الناس على أكثرها ، وقد حاول بعضهم أجوبة لها فتعسف ، والله ﷻ أعلم [.

ثم أورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى هذا الاستشكال ، والاستشكال يرد على ما اختاره رحمه الله تعالى وهو أن الصحيح في غزوة بني المصطلق أنها كانت في السنة السادسة من شعبان ، ولا شك أن هذا يُشكل عليه أن سعد ابن معاذ كان مشاركاً في غزوة بني المصطلق وكانت فيها أيضاً حادثة الإفك ، فما يمكن أن تكون متأخرة على غزوة الأحزاب ، مع العلم أن سعد ابن معاذ ﷺ سيد الأوس توفي على إثر غزوة الأحزاب وكان من الشهداء الذين استشهدوا في تلك الغزوة ، ولهذا قال ابن كثير : ((وهذا من المشكلات)) ؛ نعم هو من المشكلات على قول من يقول أن غزوة المريسيع كانت في السنة السادسة من الهجرة ، أما من يقول أنها في شوال من السنة الخامسة للهجرة لا إشكال في ذلك لأنها على ذلك كانت قبل الأحزاب بشهرين .

قال : ((وهذا من المشكلات التي أشكلت على كثير من أهل العلم بالمغازي ، فإن سعد بن معاذ لا يختلف أحدٌ منهم أنه مات إثر بني قريظة)) يعني هذا متفق عليه ولا خلاف فيه . ((وقد كانت عقب الخندق وهي في سنة خمس على الصحيح)) .

((ثم حديث الإفك لا يشك أنه في غزوة بني المصطلق هذه ، وهي غزوة المريسيع . قال الزهري : في غزوة المريسيع)) ؛ هذا أيضاً مما يقوّي الإشكال ؛ أن حديث الإفك لا يشك أنه في غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع .

((وقد اختلف الناس في الجواب عن هذا)) ؛ أخذ يسوق أقوالاً ، والأمر على قول ابن القيم والذهبي وقبلهم موسى ابن عقبة وجماعة آخرين أن الغزوتين - غزوة الأحزاب وغزوة المريسيع - كانت في السنة الخامسة ، وأن غزوة المريسيع كانت في شهر شعبان وغزوة الأحزاب كانت في شهر شوال منها لا إشكال في ذلك إطلاقاً .

قال : ((فقال موسى ابن عقبة فيما حكاه البخاري عنه : إن غزوة المريسيع كانت في سنة أربع ، وهذا خلاف الجمهور)) ، ومّر معنا قريباً أن الذي يصححه ابن كثير وهو قول الجمهور أنها في سنة خمسٍ من الهجرة والحافظ ابن حجر رحمه الله له في فتح الباري تعقب دقيق على هذا الموضع فقال : " كَذَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ - أنها في سنة أربع - وَكَأَنَّهُ سَبَقَ قَلَمٌ ، أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ سَنَةَ خَمْسٍ فَكَتَبَ سَنَةَ أَرْبَعٍ " . ما الدليل ؟ قال : " وَالَّذِي فِي مَعَاذِي مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ مِنْ عِدَّةٍ طُرُقَ أَخْرَجَهَا الْحَاكِمُ وَأَبُو سَعِيدٍ النَّيْسَابُورِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ وَغَيْرِهِمْ سَنَةَ خَمْسٍ " فيكون لا إشكال في أن غزوة المريسيع كانت سنة خمس ، لأنها تصبح على هذا قبل غزوة الأحزاب بشهرين ، وتنظم الأمور ويزول الإشكال تماماً .

قال : ((ثم في الحديث ما ينافي ما قال)) أي أنها سنة أربع ، وهذا كما عرفنا مما نبه عليه الحافظ ابن حجر الأقرب والله أعلم أنه سبق قلم .

قال : ((لأنها قالت : وذلك بعد ما أنزل الحجاب ، ولا خلاف أنه نزل صبيحة دخوله ﷺ بزینب بنت جحش ، وقد سأل ﷺ زینب بنت جحش عن عائشة رضي الله عنها)) ؛ يعني على إثر الإفك الذي زُمت به سأل النبي ﷺ زینب بنت جحش رضي الله عنها - وهي زوج النبي عليه الصلاة والسلام وابنة عمته أميمة - عن عائشة قال لها : ماذا علمت ؟ أو ماذا رأيت ؟

((فقالت : أحمي سمعي وبصري يا رسول الله)) ؛ فكانت رضي الله عنها في غاية الورع ، والجواب الذي أجابت به يدل على ورعها وعلى منهج ينبغي أن يسلكه المسلم في مثل هذه المقامات وفي مثل هذه الأحوال . فالإنسان في الفتن أو في الشائعات أو في الأمور التي

تُنقل ولا يدري الإنسان عن صحتها ينبغي عليه أن يحمي سمعه ويحمي بصره ويحمي لسانه ، لأنه إن نسب إلى سمعه سماع شيء لم يحصل أو نسب إلى بصره شيئاً لم يحصل حمل نفسه إثم ذلك وحمل نفسه تبعه ذلك ، بعض الناس لا يبالي أن يقول رأيت وهو لم ير ، بل بعضهم لا يبالي أن يحلف أنه رأى وهو لم ير ، لكن الورع والتقوى أن يحمي الإنسان سمعه وأن يحمي بصره .

عائشة رضي الله عنها هي التي تروي ذلك ، قالت : ((وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ)) ؛ وهي تشهد لها بمكانتها وحظوتها ومنزلتها وحُسنها . قالت عائشة : ((فعصمها الله بالورع)) لأن الكلام الذي قالته هو عين الورع . ولهذا عائشة رضي الله عنها قالت : ((وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك)) ، ومرّ معنا قريباً أن أختها حمنة بنت جحش خاضت في هذا الأمر مع من خاض فلما جاءت البراءة جُلدت . فسؤال النبي ﷺ عن عائشة وعن الإفك الذي رُميت به رضي الله عنها وأرضاها وقول عائشة في نفس السياق : ((هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ)) يدل على أن في ذلك الوقت قد بني النبي عليه الصلاة والسلام بزینب بنت جحش ، فهذا مما يزيد الإشكال في القول الذي نقله الإمام البخاري أنها سنة أربع ، لكن إذا قلنا أنها سنة خمس وأن هذا سبق قلم وأن الذي قاله موسى بن عقبة أنها سنة خمس وهذا يوافق قول الجمهور لا يبقى إشكال إطلاقاً .

قال ابن كثير : ((وقد ذكر أهل التواريخ أن تزويجه بها كان في ذي القعدة في سنة خمس فبطل ما قاله))؛ أي أن غزوة المريسيع كانت في سنة أربع ، لكن الأقرب والله أعلم ما حققه الحافظ بن حجر أن هذا سبق قلم ، لأن الذي ثبت من طرق عديدة عن موسى بن عقبة أنها سنة خمس ، فلا يرد أي إشكال على ذلك .

قال : ((فبطل ما قال ولم ينجل الإشكال)) ؛ والواقع أن الإشكال منجلي من جهة أن غزوة المريسيع كانت سنة خمس في شعبان ، وغزوة الأحزاب في نفس السنة سنة خمس في شوال ، وتجتمع النصوص ولا يبقى إشكال في ذلك .

وتزويج النبي عليه الصلاة والسلام بها أنه في سنة خمس هذا قول الواقدي ، والحافظ ابن حجر في الفتح قال " وهو مردود " . والأقوال في وقت نزول الحجاب ثلاثة :

- القول الأول : سنة خمس وهو الذي اقتصر على ذكره الحافظ بن كثير .
- القول الثاني : أنها سنة ثلاث ، وهذا جزم به خليفة ابن خياط وأبو عبيدة وغير واحد .
- القول الثالث : أنها سنة أربع ، وهذا جزم به الدمياطي والذهبي وابن حجر والصالحي في سبل الهدى والرشاد وغيرهم من أهل العلم .

قال الحافظ ابن كثير : ((وأما الإمام محمد بن إسحاق ابن يسار فقال : إن غزوة بني المصطلق كانت في سنة ست ، وذكر فيها حديث الإفك إلا أنه قال : عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة فذكر الحديث . قال : فقام أسيد بن الحضير فقال : أنا أعذك منه ولم يذكر سعد بن معاذ)) ؛ وعرفنا نحن أن ذكر سعد بن معاذ في هذه المقالة ثابت في الصحيحين كما مرّ معنا ذلك .

((قال أبو محمد ابن حزم : وهذا الصحيح الذي لاشك فيه ، وذلك عندنا وهمم ، وبسط الكلام في ذلك مع اعترافه بأن ذكر سعد جاء من طرق صحاح)) ؛ وهذا الذي جاء من طرق صحاح وهو أن سعد بن معاذ هو الذي حصل منه المقالة في الكلام مع سعد بن عباد ثابت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يُثبت ، ومثل ما عرفنا سابقاً لا إشكال في ترتيب الغزوتين في ضوء قول جماعة كبيرة من المحققين من أهل العلم بالمغازي والسير أشرت إلى أسماء عدد منهم .

((قلت - أي ابن كثير - وهو كما قال إن شاء الله . وقد وقع من هذا النمط في الحديث مما لا يغير حكماً أحاديث ذوات عدد ، قد نبه الناس على أكثرها ، وقد حاول بعضهم أجوبة لها فتعسف ، والله تعالى أعلم)) .

خلاصة القول : أن غزوة بني المصطلق كانت في شعبان من السنة الخامسة ، وغزوة الأحزاب كانت بعدها بشهرين في شوال من السنة نفسها السنة الخامسة للهجرة ، وهذا قول جماعة من المحققين من أهل العلم . وللحافظ ابن حجر تحقيق بديع في هذه المسألة وجمع بين النصوص في هذا الباب في كتابه فتح الباري فليراجع .

وهذا السياق ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله على إثر حادثة الإفك التي رُميت به أم المؤمنين عائشة ، وهذه الحادثة فيها دروس - حقيقة - عظيمة جداً وعبر نافعة ، وأنصح طالب العلم أن يرجع إلى فتح الباري للحافظ ابن حجر ليقف على الدروس العظيمة النافعة التي

تستنبط من هذه الغزوة ، وهي في حدود صفحتين في فتح الباري لخص جملة من الدروس العظيمة التي تستفاد من هذه الغزوة .

ثم إن أم المؤمنين عائشة بعد أن رماها من رماها بهذا الإفك نزلت براءتها بوحي يتلى ، آيات في القرآن الكريم في سورة النور بدءاً من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ ، والآيات بعدها يتلوها المؤمنون في صلواتهم وفي محاربيهم وفي مساجدهم ويحفظونها في صدورهم ويقرؤونها في المصاحف . ولهذا أجمع أهل العلم قاطبة أن من رمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بما برأها الله ﷻ منه فقد كفر ، وحكى الإتفاق على ذلك جماعة من أهل العلم منهم الإمام ابن كثير رحمه الله في كتابه التفسير فقال : " وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا - أي بعد هذا الوحي الذي نزل في براءتها - ورماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر لأنه معاند للقرآن " والله ﷻ قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣] أي عليهم لعنة الله ، فالذي يرمي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يكون مستحقاً هذه اللعنة وفي الوقت نفسه يكون كافراً لتكذيبه بالقرآن الذي نزل ببراءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها .

ونقف وقفةً مع أبيات جميله رائعة جداً لعالم من علماء الأندلس في الدفاع عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وتبرئتها وذكر فضائلها ومناقبها ومنزلتها العلية ومكانتها الرفيعة ، وقد صاغ الأبيات على لسان عائشة كأنها هي التي تتحدث ، والقصيدة للشاعر الأديب الأندلسي أبي عمران موسى بن محمد المعروف بابن بهيج كان حيّاً سنة ستٍ وتسعين وأربعمائة للهجرة رحمه الله تعالى قال :

ما شَأْنُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَشَأْنِي هُدَيْيَ الْمَحْبُوبِ
لَهَا وَضَلَّ الشَّانِي
إِنِّي أَقُولُ مُبِينًا عَنْ فَضْلِهَا وَمُتَرَجِّمًا عَنْ
قَوْلِهِمْ يَا بِلْسَانِي

يَا مُبْغِضِي لَا تَأْتِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ
 فَالْبَيْتُ
 بَيْتِي وَالْمَكَانُ مَكَانِي
 إِلَيَّ خُصِصْتُ عَلَى نِسَاءِ مُحَمَّدٍ
 بِصِفَاتِ بَرٍّ
 تَحْتَهُ _____ نَّ مَعَاذِي
 وَسَبَقْتُهُنَّ إِلَى الْفَضَائِلِ كُلِّهَا
 فَالسَّبْقُ
 سَبَقِي وَالْعِنَانُ عِنَانِي
 مَرِضَ النَّبِيِّ وَمَاتَ بَيْنَ تَرَائِي
 فَالْيَوْمُ يَوْمِي
 وَالزَّمَانُ زَمَانِي
 زَوْجِي رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَرْ غَيْرَهُ
 اللَّهُ زَوْجِنِي
 بِهِ وَحَبَانِي
 وَأَتَاهُ جِبْرِيلُ الْأَمِينُ بِصُورَتِي
 فَأَحْبَبَنِي
 الْمُحْتَمِلُ حَيْثُ رَأَانِي
 أَنَا بِكَرُهُ الْعَدْرَاءِ عِنْدِي سِرُّهُ
 وَضَجِيعُهُ
 فِي مَنْزِلِي قَمَرَانِي
 وَتَكَلَّمَ اللَّهُ الْعَظِيمُ بِحُجَّتِي
 وَبِرَاءَتِي فِي
 مُحْكَمِ الْقُرْآنِ
 وَاللَّهُ حَفَرَنِي وَعَظَّمْ حُرْمَتِي
 وَعَلَى لِسَانِ
 نَبِيِّ _____ بِرَّانِي
 وَاللَّهُ فِي الْقُرْآنِ قَدْ لَعَنَ الَّذِي
 بَعَدَ الْبِرَاءَةَ
 بِالْقَيْحِ رَمَانِي
 وَاللَّهُ وَبَّخَ مَنْ أَرَادَ تَنْقُصِي
 إِفْكَاً وَسَبْحَ
 نَفْسَهُ فِي شَانِي
 إِلَيَّ لَمْ حَصَنَهُ إِلَّا زَارِ بَرِيئَةً
 وَدَلِيلَ
 حُسْنِ طَهَارَتِي إِحْصَانِي
 وَاللَّهُ أَحْصَنَنِي بِخَاتَمِ رُسُلِهِ
 وَأَدَّلَّ أَهْلَ

قَتَلَ الْأُلَى مَنَعُوا الزَّكَاةَ بِكُفْرِهِمْ وَأَذَلَّ أَهْلَ
الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ
سَبَقَ الصَّحَابَةَ وَالْقَرَابَةَ لِلْهُدَى هُوَ شَيْخُهُمْ
فِي الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَاللَّهُ مَا اسْتَبَقُوا لِنَيْلِ فَضِيلَةٍ مِثْلَ اسْتِبَاقِ
الْحَيِّ لِيَوْمِ رَهْمَانَ
إِلَّا وَطَارَ أَبِي إِلَى عَلِيَّيْهَا فَمَكَائُهُ
مِنْهَا أَجْلٌ مَكَّانِ
وَيْلٌ لِعَبْدٍ خَانَ آلَ مُحَمَّدٍ بِعَدَاوَةِ
الْأَزْوَاجِ وَالْأَخْتَانِ
طُوبَى لِمَنْ وَالَى جَمَاعَةَ صَحْبِهِ وَيَكُونُ مِنْ
أَحْبَابِ الْحَسَنِ
بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ أَلْفَةٌ لَا تَسْتَحِيلُ
بِنَزْعَةِ الشَّيْطَانِ
هُمُ كَالْأَصَابِعِ فِي الْيَدَيْنِ تَوَاصُلًا هَلْ يَسْتَوِي
كَفٌّ بِعَيْرِ بَنَانِ؟
حَصِرَتْ صُدُورُ الْكَافِرِينَ بِوَالِدِي وَقُلُوبُهُمْ
مُلْتَمَسَاتٌ مِنَ الْأَضْغَانِ
حُبُّ الْبَثُولِ وَبَعْلِهَا لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْ مِلَّةِ
الْإِنْسَانِ فِيهِ اثْنَانِ
أَكْرَمَ بِأَزْبَعَةِ أُمَّةٍ شَرَعْنَا فَهُمْ لِيْنِتِ
الدِّينِ كَالْأَزْكَانِ
نُسِجَتْ مَوَدَّتُهُمْ سَدَى فِي الْحُمَةِ فَبِنَاؤُهَا مِنْ
أَثْبَاتِ الْبُنْيَانِ
اللَّهُ أَلْفَ بَيْنٍ وَدَّ قُلُوبِهِمْ لِيَغِيظَ كُلَّ

مُنَافِقٍ طَعَنَ _____ ان
رَحْمَاءَ بَيْنَهُمْ صَفَتَ أَخْلَاقَهُمْ _____ وَخَلَّتْ
قُلُوبُهُمْ _____ مِنْ الشَّنَائِ ان
فَدُحُوهُمْ بَيْنَ الْأَحْبَةِ كُفَّةٌ _____ وَسَبَابُهُمْ
سَبَبٌ إِلَى الْحِرْمَانِ _____ ان
جَمَعَ إِلَهُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَبِي _____ وَاسْتَبَدَّلُوا
مِنْ حَوْفِهِمْ _____ بِأَمَانِ ان
وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نُصْرَةَ عَبْدِهِ _____ مَنْ ذَا يُطِيقُ
لَهُ عَلَى خِيَا _____ ان
مَنْ حَبَّبِي فَلْيَجْتَنِبْ مَنْ سَبَّبِي _____ ان كَانِ
صَانَ مُحَبَّبِي وَرَعَانِي _____ ان
وَإِذَا مُحِبِّي قَدْ أَلْظَمَ بِمُبْغِضِي _____ ان
الْبُغْضِ مُسْتَوِيَانِ _____ ان
إِنِّي لَطَيِّبَةٌ خُلِقْتُ لِطَيِّبِ _____ ان
أَطْيَبِ النَّسْوَانِ _____ ان
إِنِّي لَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ أَبِي _____ ان
فَسَوْفَ يَبُوءُ بِالْحُسْنِ _____ ان
اللَّهُ حَبَّبَنِي لِقَلْبِ نَبِيِّهِ _____ ان
الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ _____ ان هَدَانِي
وَاللَّهُ يُكْرِمُ مَنْ أَرَادَ كَرَامَتِي _____ ان
مَنْ أَرَادَ هَوَانِي _____ ان
وَاللَّهُ أَسْأَلُهُ زِيَادَةَ فَضْلِهِ _____ ان
وَحَمْدُتَهُ _____ ان
شُكْرًا لِمَا أَوْلَانِي _____ ان
يَا مَنْ يُلُودُ بِأَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ _____ ان
بِذَلِكَ رَحْمَةً الرَّحْمَانِ _____ ان

صِلْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَحِدْ
حُلَّةَ الْإِيمَانِ
إِنِّي لَصَادِقَةُ الْمَقَالِ كَرِيمَةٍ
إِي وَالَّذِي
ذَلَّتْ لَأَنَّهُ التَّقَالَانِ
حُذِّهَا إِلَيْكَ فَإِنَّمَا هِيَ رَوْضَةٌ
مَحْفُوفَةٌ
بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحِ
صَلَّى إِلَهُهُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ
فِيهِمْ تَشْمُ
أَزَاهِرُ الْبُسْتَانِ

قال ابن كثير رحمه الله :

[فصل (غزوة الحديبية) ؛ ولما كان ذو القعدة من السنة السادسة خرج رسول الله ﷺ معتمراً في ألف وقيل : وخمسمائة ، وقيل : وأربعمائة ، وقيل : وثلاثمائة ، وقيل : غير ذلك . وأما من زعم أنه إنما خرج في سبعمائة فقد غلط . فلما علم المشركون بذلك جمعوا أحابيشهم وخرجوا من مكة صائدين له عن الاعتمار هذا العام ، وقدّموا على خيل لهم خالد بن الوليد إلى كراع الغميم . وخالفه ﷺ في الطريق فأنتهى ﷺ إلى الحديبية ، وتراسل هو والمشركون حتى جاء سهيل بن عمرو فصالحه على أن يرجع عنهم عامه هذا وأن يعتمر من العام المقبل ، فأجابه ﷺ إلى ما سأل ، لما جعل الله ﷻ في ذلك من البركة والمصلحة ، وكره ذلك جماعة من أصحابه منهم عمر بن الخطاب ﷺ ، وراجع أبا بكر الصديق في ذلك ، ثم راجع النبي ﷺ ، فكان جوابه ﷺ كما أجابه الصديق ﷺ ، وهو أنه عبد الله ورسوله وليس يعصيه وأنه ناصره . وقد استقصى البخاري هذا الحديث في صحيحه . فقاضاه سهيل بن عمرو على أن يرجع عنهم عامه هذا وأن يعتمر من العام المقبل على ألا يدخل مكة إلا في جُلبان السلاح ، وألا يقيم عندهم أكثر من ثلاثة أيام ، وعلى أن يأمن الناس بينهم وبينه عشر سنين . فكانت هذه الهدنة من أكبر الفتوحات للمسلمين كما قال عبد الله مسعود ﷺ . وعلى أنه من شاء دخل في عقد

رسول الله ﷺ ، ومن شاء دخل في عقد قريش . فكانت خزاعة ممن دخل في عقده ﷺ ، ودخل بنو بكر في عقد قريش ، وعلى أنه لا يأتيه أحد منهم - وإن كان مسلماً - إلا رده إليهم ، وإن ذهب أحد من المسلمين إليهم لا يردونه إليه . فأقر الله سبحانه ذلك كله إلا ما استثنى من المهاجرات المؤمنات من النساء ، فإنه نهاهم عن ردهن إلى الكفار ، وحرّمهن على الكفار يومئذ ، وهذا أمرٌ عزيز ما يقع في الأصول وهو تخصيص السنة بالقرآن ، ومنهم من عدّه نسخاً ، كمذهب أبي حنيفة وبعض الأصوليين ، وليس هو الذي عليه أكثر المتأخرين ، والنزاع في ذلك قريب ، إذ يرجع حاصله إلى مناقشة في اللفظ . وقد كان ﷺ قبل وقوع هذا الصلح بعث عثمان بن عفان ﷺ إلى أهل مكة يُعلّمهم أنه لم يجيء لقتال أحد وإنما جاء معتمراً ، فكان من سيادة عثمان ﷺ أنه عرض عليه المشركون الطواف بالبيت فأبي عليهم وقال : لا أطوف بها قبل رسول الله ﷺ . ولم يرجع عثمان ﷺ حتى بلغه ﷺ أنه قد قُتل عثمان ، فحمي لذلك رسول الله ﷺ ثم دعا أصحابه إلى البيعة على القتال ، فبايعوه تحت الشجرة هناك ، وكانت سمرة ، وكان عدة من بايعه هناك جملة من قدّمنا أنه خرج معه إلى الحديبية إلا الجُدُّ بن قيس فإنه كان قد استتر ببيع له نفاقاً منه وخذلانا ، وإلا أبا سريجة حذيفة بن أسيد فإنه شهد الحديبية ، وقيل : إنه لم يبايع ، وقيل : بايع . وكان أول من بايع يومئذ أبو سنان وهب بن محسن ، أخو عكاشة بن محسن ، وقيل : ابنه سنان بن أبي سنان ، وبايع سلمة بن الأكوع ﷺ يومئذ ثلاث مرات بأمر رسول الله ﷺ له بذلك كما رواه مسلم عنه ، ووضع ﷺ يده على نفسه الكريمة ثم قال : " وهذه عن عثمان " ، فكان ذلك أجلّ من شهوده تلك البيعة . وأنزل الله ﷻ في ذلك { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ } [الفتح: ١٨] ، وقال ﷺ : " لا يدخل أحد ممن بايع تحت الشجرة النار " فهذه هي بيعة الرضوان . ولما فرغ النبي ﷺ من مقاضاة المشركين - كما قدّمنا - شرع في التحلل من عمرته وأمر الناس بذلك ، فشق عليهم وتوقفوا رجاء نسخه ، فغضب النبي ﷺ من ذلك ، فدخل على أم سلمة فقال لها ذلك ، فقالت : " اخرج أنت يا رسول الله فاذبح هديك واحلق رأسك والناس يتبعونك يا رسول الله " فخرج ففعل ذلك ، فبادر الناس إلى موافقته فحلقوا كلهم إلا عثمان بن عفان وأبا قتادة الحارث بن ربيعي فإنهما قصراً ، ذكره

السهيلى فى الروض الأنف . وكاد بعضهم يقتل بعضاً غماً لأنهم يرون المشركين قد ألزموهم بشروط كما أحبوا ، وأجابهم ﷺ إليها ، وهذا من فرط شجاعتهم ﷺ وحرصهم على نصر الإسلام، ولكن الله ﷻ أعلم بحقائق الأمور ومصالحها منهم، ولهذا لما انصرف ﷺ راجعاً إلى المدينة أنزل الله ﷻ عليه سورة الفتح بكمالها فى ذلك ، وقال عبد الله بن مسعود: "إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، وإنما كنا نعدّه فتح الحديبية " ، وصدق ﷺ ، فإن الله سبحانه جعل هذه السبب فى فتح مكة كما سنذكره بعد أن شاء الله تعالى . وعوض من هذه خير سلفاً وتعجيلاً ، فكانت مدة إقامتهم بالحديبية نحواً من عشرين ليلة] .

فى هذا الفصل تحدّث الإمام بن كثير رحمه الله تعالى عن صلح الحديبية ، والنبي عليه الصلاة والسلام فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة خرج من المدينة متجهاً إلى مكة بنيةً الاعتمار ولم يخرج بنية القتال ، وذكر الإمام بن كثير رحمه الله تعالى أن الذين خرجوا معه من أصحابه الكرام ألف وخمسائة وقيل ألف وأربعمائة وقيل ألف وثلاثمائة وقيل غير ذلك . يقول : ((وأما من زعم أنه إنما خرج فى سبعمائة فقد غلط)) ؛ وأقرب هذه الأقوال التى ذكرها الحافظ بن كثير رحمه الله أنهم ألف وأربعمائة ، والإمام بن القيم رحمه الله تعالى فى كتابه الزاد ذكر جملة من الشواهد التى تفيد أن عددهم كان ألف وأربعمائة ولهذا قال رحمه الله : " والقلب إلى هذا أميل " .

قال ابن كثير : ((فلما علم المشركون بذلك جمعوا أحابيشهم وخرجوا من مكة صادّين له عن الاعتمار هذا العام)) ؛ إذأ هم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام لم يأت لقتال وإنما جاء معتمراً ، فتجمعوا وتهيئوا لملاقاة النبي عليه الصلاة والسلام لصده عن بيت الله الحرام وقد جاء مليئاً بالعمرة قاصداً بيت الله تعالى لأداء العمرة ، ولهذا كان بعض المشركين كما دُكر فى بعض كتب السير استنكروا ذلك وقالوا " إنما جاء معتمراً " أى لم يأت لقتال صلوات الله وسلامه عليه .

((وقدّموا على خيل لهم خالد بن الوليد إلى كراع الغميم)) ؛ كما مر معنا ذكرٌ لهذا الموضوع قريباً .

((وخالفه ﷺ في الطريق فانتهى إلى الحديبية)) ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لما علم بخروج خروج خالد بن الوليد والجيش الذي معه لملاقاة النبي عليه الصلاة والسلام تشاور مع الصحابة هل يلاقونهم أو أنهم يسلكون طريقاً آخر يقتربون فيه إلى مكة ؟ فكان الرأي أن يخالفوه الطريق ، فانتهى إلى الحديبية .

((وتراسل هو والمشركون)) ؛ وكان عليه الصلاة والسلام لا يريد قتالاً ، بل إنه عليه الصلاة والسلام قال: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي حُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا)) ؛ فهذا فيه أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يريد قتالاً وإنما يريد الاعتمار وأي خطة يطرحونها أو يبدونها أو يذكرونها وفيها تعظيم لحرمات الله ﷻ فإنه عليه الصلاة والسلام يقبلها .

((وتراسل هو والمشركون حتى جاء سهيل بن عمرو)) ؛ وكان المشركون يتشاورون فيقول بعضهم ابعثوني إليه، فجاء قبل سهيل أكثر من واحد ، فلما أقبل سهيل وقال الصحابة للنبي عليه الصلاة والسلام إن الذي جاء سهيل ابن عمرو ، قال عليه الصلاة والسلام: ((لَقَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ)) ، وهذا شاهد من شواهد كثيرة على قوله عليه الصلاة والسلام : ((وَيُعْجِبُنِي الْقَوْلُ)) والفأل هي الكلمة الطيبة ، بحيث يسمع الإنسان اسماً فيتفاءل ، مثل إنسان يمضي إلى مستشفى أو لعلاج من مرض معين فيسمع شخصاً ينادي يا سالم مثلاً فيتفاءل، هذه من الكلمة الطيبة التي قال عليه الصلاة والسلام : ((وَيُعْجِبُنِي الْقَوْلُ)) فلما سئل عنه قال : ((الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ)) .

((فصالحه)) ؛ يعني تمت مصالحة بين النبي عليه الصلاة والسلام وسهيل ابن عمرو . والمصالحة فيها بنود عديدة ، ولما أراد عليه الصلاة والسلام في المصالحة أن يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » امتنع سهيل ابن عمرو فقال عليه الصلاة والسلام للكاتب اكتب «باسمك اللهم» ، ولما أملى عليه هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ ، قال له سهيل بن عمر : لو كنا نقر أنك رسول الله ما رددناك . فقال : أكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله ، ثم كتبت المصالحة . ولخص الحافظ بن كثير رحمه الله تعالى ما تم عليه في هذا الصلح .

قال : ((فصالحه على أن يرجع عنهم عامه هذا)) ؛ والسبب في ذلك أن سهيل ابن عمر قال : " وَاللَّهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُعْطَةً " أي : والله لا نرضى أن يتحدث العرب

أو يتحدث الناس عَنَّا أَنَا أَخَذْنَا عِنُودَ وَبِقُوَّةٍ . فَكَانَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي كُتِبَتْ فِي الصَّلْحِ أَنْ يَرْجِعَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلَا تَتِمُّ الْعُمْرَةُ فِي هَذَا الْعَامِ ، ((وَأَنْ يَعْتَمِرَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ)) ؛ وَلِهَذَا سَيَأْتِي عِنْدَ الْمُصَنِّفِ لِاحْتِقَاقِ عُمْرَةِ الْقَضِيَّةِ أَوْ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ .

((فَأَجَابَهُ ﷺ إِلَى مَا سَأَلَ ، لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ ﷻ فِي ذَلِكَ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالْمَصْلُحَةِ)) ؛ وَإِنْ كَانَ عِدَدُ مِنَ الصَّحَابَةِ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ لَا يَقْبَلَ وَأَنْ يَرْفُضَ هَذَا الْأَمْرَ وَقَالُوا لِمَاذَا نَعْطِي الدُّنْيَا مِنْ دِينِنَا ، لَكِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَبِلَ ذَلِكَ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ الْبَرَكَةِ وَالْمَصْلُحَةِ .

قال : ((وكره ذلك جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب ﷺ ، وراجع أبا بكر الصديق في ذلك ثم راجع ﷺ ، فكان جوابه كما أجابه الصديق ﷺ ، وهو أنه عبد الله ورسوله وليس يعصيه وهو ناصره . وقد استقصى البخاري هذا الحديث في صحيحه)) .

قال : ((فقاضاه سهيل بن عمرو على أن يرجع عنهم عامه هذا وأن يعتمر من العام المقبل)) ؛ هذا أحد الأمور التي اتفق عليها في الصلح .

أيضاً ((على أن لا يدخل مكة إلا في جُلْبَانِ السِّلَاحِ)) ؛ يعني إذا دخل من قابل يكون بهذه الصفة : يكون السلاح في غمده وفي جرابه .

((وَأَنْ لَا يَقِيمَ عِنْدَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ)) يعني إذا دخل مكة يقيم فيها ثلاثة أيام فقط ثم يخرج .

((وعلى أن يأمن الناس بينهم و بينه عشر سنين)) ؛ لا يكون بينهم قتال .

((فَكَانَتْ هَذِهِ الْمَهْدَنَةُ مِنْ أَكْبَرِ الْفَتْوحَاتِ لِلْمُسْلِمِينَ)) وَإِنْ كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ كَرِهُوا ذَلِكَ وَطَالَبُوا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِعَدَمِ الْمَوَافَقَةِ .

قال : ((فكَانَتْ هَذِهِ الْمَهْدَنَةُ مِنْ أَكْبَرِ الْفَتْوحَاتِ لِلْمُسْلِمِينَ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ مَسْعُودٍ)) وَغَيْرِهِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، يَعْنِي يَرُونَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْفَتْوحَاتِ الْكَبِيرَةِ وَالْإِتِّصَارَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَكْرَمَ اللَّهُ ﷻ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ . وَسَيَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْفَصْلِ نَقْلَ كَلَامِ ابْنِ مَسْعُودٍ : "إِنَّكُمْ تَعْدُونَ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ وَإِنَّمَا كُنَّا نَعُدُّهُ فَتْحَ الْحَدِيثِ" .

أيضاً من الأمور التي اتفق عليها في الصلح : ((وعلى أنه من شاء دخل في عقد رسول الله ﷺ ، ومن شاء دخل في عقد قريش ؛ فكانت خزاعة ممن دخل في عقده ﷺ ، ودخل بنو بكر في عقد قريش)) ؛ وهذا عندي أيضاً من الأمور التي تُقوّي أن غزوة الأحزاب كانت بعد غزوة المريسيع .

أيضاً من الأمور التي تم الاتفاق عليها قال : ((وعلى أنه لا يأتيه أحد منهم وإن كان مسلماً إلا رده إليهم ، وإن ذهب أحد من المسلمين إليهم لا يردونه إليه)) ؛ يعني بعد هذا الصلح لو أن أحد كفار قريش أسلم وذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة مسلماً فإن من الشروط المتفق عليها في هذا الصلح أن يُعاد إلى المشركين في مكة ، بينما العكس لو أن واحداً من الذين في المدينة ذهب إليهم لا يعاد .

وهم يكتبون الصلح أحد الصحابة - وهو أبو جندل ابن سهيل ﷺ - كان في مكة وقد أسلم وأعلن إسلامه فقيّده بسلاسل ، وجد النبي عليه الصلاة والسلام قريباً منه فجاء يرصف في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى نفسه بين ظهور المسلمين ، وهو يكون بذلك يرى أنه تخلص الآن من الكفار ومن أذاهم وأنه الآن أصبح بين المسلمين ، فقال سهيل : "هذا أول من أقاضيك عليه أن تردّه" . تأمل الآن في الأمر - وابن كثير يقول كاد الصحابة يقتل بعضهم بعضاً من شدة الغم والكرب الشديد الذي أصابهم - الآن هذا صحابي بينهم جاء من المشركين بسلاسله وقيوده وهم هناك قد آذوه ، ومن الشروط أن يُرجع إلى المشركين !! فأمر النبي عليه الصلاة والسلام - وهو أهل الوفاء ﷺ - تنفيذاً لهذه البنود أن يُرجع . فرجع أبو جندل إلى مكة .

ثم أيضاً صحابي آخر وهو أبو بصير ، بعد أن رجع النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فرّ من المشركين وجاء إلى المدينة ، فلما وصل إلى المدينة لم يلبث قليلاً إلا ويأتي اثنان من المشركين يطالبون به ويقولون للنبي عليه الصلاة والسلام : الشرط الذي بيننا وبينك ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : تذهب معهم - وهذا ابتلاء عظيم لكن لله ﷻ فيه حكمة عظيمة - فخرج أبو بصير معهم ولما وصلوا ذو الحليفة وهما اثنان معهما السلاح وهو أعزل لا سلاح معه وجلس يتحدث جلسوا يأكلون التمر ، فقال لأحدهما : السيف الذي معك جيد ، قال نعم جيد وفعلت فيه كذا وفعلت فيه كذا ، فقال : أرني أنظر إليه ، فأعطاه

السيف ؛ فضربه به فمات في مكانه . الآخر قام يعدو يجري إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فلما أقبل قال الرجل فيه زعر ، فأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بما حصل ، وبعد قليل وإذا أبو بصير يأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام يقول : "أنت وفيت بعهدك والله ردي إليك " يعني يريد أن يبقى في المدينة . فقال عليه الصلاة والسلام : ((ويله إنه مسعر حرب)) ، فأمره عليه الصلاة والسلام أن يخرج على الشرط الذي تم بينه وبين المشركين . فذهب أبو بصير ولم يرجع إليهم ، ذهب إلى جبل قريب من مكة وبقي فيه ، فسمع به أبو جندل أنه في ذلك المكان فتسلل أيضاً وذهب عنده وتعلم به من أسلم من أهل مكة فصاروا يذهبون إليهم ، فصاروا جماعة هناك وأصبحوا يترصدون لكل غير تجارية تخرج لقريش . وكما نلاحظ جعل الله ﷺ هذه الجماعة وبالاً على قريش مع أن هذا شرط هم اشترطوه وكانوا يعدونه انتصاراً لهم وغلبة وفي ظاهره عدم إنصاف للمسلمين ، لكن أصبح الشرط الذي تضايق منه الصحابة وتأذوا منه وطلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن لا يقبله وبالاً وأذى على قريش ، فأخذوا يطالبون النبي عليه الصلاة والسلام ويترجونه أن يعفيهم من هذا ويلتمسون منه أن يأخذهم وأن يكف أذاهم عنهم .

قال رحمه الله تعالى : ((فأقر الله سبحانه ذلك كله إلا ما استثنى من المهاجرات المؤمنات من النساء)) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمَحْنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ [المتحنة: ١٠] فاستثنى الله من هذا النساء المؤمنات أن لا يرجعن إلى الكفار .

قال : ((فإنه نهاهم عن ردهن إلى الكفار)) ؛ في قوله ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ .

((وحرّمهن على الكفار يومئذ)) ؛ ﴿ لَاهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَكَلَاهُمُ يُحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [المتحنة: ١٠] ، ولهذا لما نزلت الآية يُقال أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان له في مكة امرأتين كافرتين فطلقهن مباشرة منذ سمع بالآية .

قال : ((وهذا أمرٌ عزيز ما يقع في الأصول ، وهو تخصيص السنة في القرآن)) ؛ يعني الصلح الذي تم الاتفاق عليه في السنة بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين المشركين : أن من جاءهم لا يُرجع ، فجاء القرآن يخصّص السنة .

قال : ((ومنهم من عدّه نسخاً كمذهب أبي حنيفة وبعض الأصوليين)) ؛ يعني عدّوا هذه الآية ناسخة ، لأن بعض أهل العلم المتقدمين يطلق على النص الذي يقيد عموم نص قبله ناسخاً له ، ومن أهل العلم من لا يعده نسخاً وإّما يعده تقييد للعام .

قال : ((وليس هو الذي عليه أكثر المتأخرين)) ؛ يعني أكثر المتأخرين لا يعدون هذا نسخاً وإّما هو من قبيل تقييد العام .

قال : ((والنزاع في ذلك قريب إذ يرجع حاصله إلى مناقشة في اللفظ)) ؛ يعني الخلاف في ذلك هل هو نسخ أو ليس بنسخ خلاف لفظي .

قال : ((وقد كان ﷺ قبل وقوع هذا الصلح بعث عثمان بن عفان إلى أهل مكة يُعلمهم أنه لم يجيء لقتال أحد وإنما جاء معتمراً ، فكان من سيادة عثمان ﷺ أنه عرض عليه المشركون الطواف بالبيت)) لأنه دخل محرّم وملي فعرضوا عليه الطواف بالبيت .

قال : ((فأبي عليهم)) ؛ أبي ﷺ ، وهذا من سيادة عثمان .

((وقال : لا أطوف بها قبل رسول الله ﷺ)) ؛ ولما تأخر عثمان تحدّث بعض الصحابة ﷺ وقالوا لقد طاف بالبيت وأنهى عمرته ونحن جلوس هنا ، يعني يستعجلون للدخول ويستبقون إلى الخيرات ؛ من شدة الحرص القائم في قلوبهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((لا أظن أنه طاف بالبيت)) . فلما رجع عثمان وأخبر أنه لم يطف . قال : ((ذلك ظني به أن لا يطوف بالبيت حتى أطوف معه)) .

قال : ((ولم يرجع عثمان ﷺ حتى بلغه ﷺ أنه قد قُتل عثمان)) ؛ يعني جاءت شائعة أن عثمان ﷺ قُتل ، قتله كفار قريش .

((فحمي لذلك رسول الله ﷺ ثم دعا أصحابه إلى البيعة على القتال ، فبايعوه تحت شجرة هناك ، وكانت سمرة)) ؛ وكان الصحابي الجليل معقل ابن يسار أخذاً بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ والصحابة يتقدمون واحداً تلو الآخر يبايعونه ﷺ على القتال ، وجميع هؤلاء نزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾

﴿ [الفتح: ١٨] ، فهذا فيه إخبار الله ﷻ برضاه عن هؤلاء وعددهم كما عرفنا في القول الأقرب أنهم ألف وأربعمائة .

قال : ((وكان عدة من بايعه هناك جملة من قدّمنا أنه خرج معه إلى الحديبية إلا الجُد بن قيس فإنه كان قد استتر ببيعير له نفاقاً منه وخذلانا ، وإلا أبا سريحة حذيفة ابن أسيد ، فإنه شهد الحديبية ، وقيل : إنه لم يبايع ، وقيل : بل بايع)) ؛ يعني اختلّف فيه هل بايع أم لم يبايع .

((وكان أول من بايع يومئذ أبو سنان وهب ابن محصن ، أخو عكاشة ابن محصن ﷺ ، وقيل : ابنه سنان ابن أبي سنان ، وبايع سلمة بن الأكوع ﷺ)) ؛ وسلمة بن الأكوع مرّ معنا ذكرٌ له قريباً ، وهو أنه كان شجاعاً رامياً وأيضاً عدّاءً سريعاً إذا جرى سبق الخيل .

قال رحمه الله تعالى : ((وبايع سلمة بن الأكوع ﷺ يومئذ ثلاث مرات بأمر رسول الله ﷺ له بذلك كما رواه مسلم عنه)) ؛ الحديث جاء في صحيح مسلم أن سلمة ﷺ بايع في أول الناس ثم بايع في أوسطهم ثم بايع في آخرهم ، وكل ذلكم كان بأمره عليه الصلاة والسلام ، فكان في كل مرة يقول قد بايعت ، فيقول له بايع ؛ فهذا أمرٌ أختص به رضي الله عنه وأرضاه .

قال : ((ووضع ﷺ يده عن نفسه الكريمة - للمبايعه - ثم قال : وهذه عن عثمان)) لأن عثمان ﷺ في مكة .

((فكان ذلك أجلّ من شهوده تلك البيعة . وأنزل الله ﷻ في ذلك { لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } ، وقال ﷺ : لا يدخل أحد من بايع تحت الشجرة النار)) ؛ والحديث خرّجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في كتابه الصحيح .

قال : ((فهذه هي بيعة الرضوان)) ؛ أي اشتهرت هذه البيعة ببيعة الرضوان لأن الله ﷻ أنزل على إثر هذه البيعة قوله : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨] .

قال : ((ولما فرغ النبي ﷺ من مقاضاة المشركين كما قدّمنا)) ؛ لما انتهى من مقاضاة المشركين والصلح الذي تم بينهم .

((شرع في التحلل من عمرته وأمر الناس بذلك ، فشق عليهم وتوقفوا)) ؛ وهذا التوقف ليس امتناعاً وإباءً وإنما رجاء أن ينسخ ، وهو أيضاً من دلائل حرصهم ورغبتهم في الخير ﷺ .

((فغضب النبي ﷺ من ذلك ، فدخل على أم سلمة رضي الله عنها فقال لها ذلك ، فقالت : اخرج أنت يا رسول الله فاذبح هديك واحلق رأسك ، والناس يتبعونك يا رسول الله ، فخرج ففعل ذلك ، فبادر الناس إلى موافقته ، فحلقوا كلهم ، إلا عثمان ابن عفان وأبا قتادة الأنصاري فإنهما قصرًا ، ذكره السهيلي في الروض الأنف)) .
قال : ((وكاد بعضهم يقتل بعضاً غماً)) أي أصاب الصحابة ﷺ غم شديد وتألوا المأ عظيماً لهذا الأمر .

((لأنهم يرون المشركين قد ألزموهم بشروط كما أحبوا)) ؛ أي كما أحب المشركون لأنفسهم ((وأجابهم إليها ﷺ)) .

قال بن كثير رحمه الله : ((وهذا من فرط شجاعتهم ﷺ وحرصهم على نصر الإسلام ، ولكن الله أعلم بحقائق الأمور ومصالحها منهم)) ؛ وكانت العاقبة من فضل الله ﷻ ومنه للمؤمنين .

قال : ((ولهذا لما انصرف ﷺ راجعاً إلى المدينة أنزل الله ﷻ عليه سورة الفتح بكاملها في ذلك)) ؛ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ نزلت هذه السورة بكاملها، حتى إن بعض الصحابة لما نزل قوله ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ قالوا يا رسول الله هذا لك ؛ فأنزل الله ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ فهذه للمؤمنين .

((وقال عبد الله بن مسعود : إنكم تعدون الفتح فتح مكة وإنما كنا نعدده فتح الحديبية)) ؛ وأيضاً جاء في البخاري من حديث البراء ابن عازب ﷺ قال : ((تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا ، وَمَحْنُ نَعْدُ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ)) .

قال : ((وصدق ﷺ ، فإن الله سبحانه جعل هذه السبب في فتح مكة كما سنذكره بعد إن شاء الله تعالى)) ؛ أي عند الحديث عن فتح مكة .

قال : ((وعَوْض من هذه خيبر سلفاً وتعجيلاً)) ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام لما رجع إلى المدينة أقام بها إلى المحرم من السنة السابعة ثم خرج إلى خيبر ، يعني بعد هذا بوقت ليس بالطويل فغنم الله المسلمين وعوضهم خيبر سلفاً وتعجيلاً .

قال : ((فكانت مدة إقامتهم بالحديبية نحواً من عشرين ليلة)) .
وبهذا ينتهي حديث المصنف رحمه الله تعالى عن صلح الحديبية أو غزوة الحديبية ثم يأتي بعد ذلك الحديث عن غزوة خيبر .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

* * *